الحضارة الوسط

الوظيفة . المنطلقات

الأستاذ/ محمود عبد الله عاكف

بسم ا الرحمن الرحيم

المحتويات

المقدمة:

إن الحضارة التي نشأت وتكونت مع هجرة الرسول محمد صلى ا عليه وسلم إلى المدينة وتأسيس الدولة الإسلامية الأولى قد قامت على أساس مهـم جـدا وهـو بنـاء الإنسان وصياغته صياغة إسلامية في جوانبه المختلفة سواء العقليـة أو الروحيـة أو البدنية. وعندما تحققت هذه الصياغة الإسلامية للإنسان بدأت الثمار تتوالى من فتوحات وإنجازات في مجالات الحضارة المختلفة من علمية وثقافية وأدبية وفنية وغيرها مـن المجالات. إن ما يميز الدين الإسلامي

إنه دين شامل لا يقف عند البعد الديني الروحي فقط كما أنه لايغفل البعد المادي ولا يهمله ولكنه يجمع بين المادة والروح بقدر محدد يمكن الإنسان من الحياة ويحقق أهدافه ويعيش في سعادة، كما أن الدين الإسلامي وهو أساس هذه الحضارة لا يقوم على التعبد الفردي الخالص -على أهميته- مهما بلغت درجة تقواه وإنما يقوم على تحقيـق كافـة فرائضه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها.

والحضارة الإسلامية تتميز عن باقي الحضارات قديما وحديثا بأنها حضارة قامـت على أساس الدين الشامل، فالحضارة الصينية لم تكن حضارة كونفوشيوسيه والحضارة اليابانية لم تكن بوذية وكذلك الحضارة الرومانية والغربية الحديثة لم تقم علـى تعـاليم الديانة المسيحية ولكن الحضارة الإسلامية تختلف فلو لم تكن هناك دعوة الإسـلام مـا قامت الحضارة الإسلامية. وتبعاً لذلك فإن الحضارة الإسلامية هي حـضارة شـاملة متكاملة قد نبغت وتفوقت وأبدعت في مختلف مناحي الحياة. وهـذا قلمـا نجـده فـي الحضارات الأخرى فنجد معظمها قد تفوق في مجال من المجالات أما مجال الطب أو مجال الفلك أو مجال الفلسفة أو مجال الفنون. وكما أخذت الحضارة الإسلامية الشمول من الدين الإسلامي فإنها قد أخذت أيضا -فيما أخذت- الوسـطية لـذلك فالحـضارة الإسلامية حضارة وسط.

وعن الحضارة الوسط والبعد الحضاري للوسطية قد تم إعداد هذه الورقة من أجـل تقديمها لمؤتمر الوسطية منهج حياة الذي تنظمه وزارة الأوقاف والـشئون الإسـلامية بدولة الكويت. بعد هذه المقدمة سوف نتناول مفهوم الحضارة وتطورهـا يلـي ذلـك عرض لبعض النماذج التي توضح دور الحضارة الإسلامية في بناء وتكوين الحضارة الحديثة ومن خلال ذلك نناقش فكرة حتمية توارث الحضارات. في الجزء التالي نعمـل على توضيح الوظيفة الأساسية للحضارة الوسط وما هو دورها وبعـد ذلـك نعـرض بعض المنطلقات التي يجب أن تقوم عليها الحضارة الوسط والـسمات التـي تـضمن استمراريتها.وفي النهاية نقدم خاتمة وبعض التوصيات التي نراها مهمة.

مفهوم الحضارة وتطورها:

إن الحضارة في مفهومها المتعارف عليه هي "ثمرة كل جهد يقـوم بـه الإنـسان لتحسين ظروف حياته والرقي بها سواء أكان المجهود المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصودا أم غير مقصود في المجالين المادي والروحي" لذلك فهي مرتبطة بالزمن لأن كل جهد إنساني يحتاج إلى زمن لكي يوتي ثماره الحضارية كاملة كما تحتاج الـشجرة إلى الزمن لكي تنضج ثمارها. ومن هذا التعريف يتضح أيـضا أن أي إنتـاج ينتجـه الإنسان لا يدخل في دائرة الحضارة ما لم يتداول ويشيع وتتم الفائدة مـن وراءه فـاي اختراع لا ينتشر ولا يوظف لمصلحة البشرية لا يعد إسهاماً حضاريا لان هذا الاختراع لم يشع استعماله ولم تعم به الفائدة وانما اصبح دليل على عبقرية المخترع.

والخطوات الحضارية لا تحتاج إلى الوقت والزمن فحسب بل تحتاج إلـى الجهـد العقلي والبدني أيضا. وأهمية العقل أنه يساعد الإنسان على حسن توظيف ما لديه مـن إمكانات. وقد كانت قدرة العقل محدودة في أول الأمر ولكنهـا قويـت وازدادت مـع الاستعمال والمران شأنه في ذلك شأن باقي أعضاء الجسم مثل الـزراع إذا لـم يـتم استخدامه بشكل دائم يضمر ويتوقف عن الحركة وأداء وظيفته بشكل جيد. والعقل هبة لجميع البشر على حد سواء ولا يوجد تفاوت بين أجناس البشر فـي درجـات الـذكاء الطبيعي –كما أشاعت ذلك النظريات العنصرية الأوربية ولكن الاختلاف يـأتي مـن درجة التمرين والاستعمال للعقل كعضو من أعضاء الجسم.

وترتبط الحضارة بالبيئة بمكوناتها المختلفة من طبيعة الأرض والمنـاخ ومـوارد الثروة فيها.وخاص بعض المفكرين ومنهم ابن خلدون "إن أهل الأقاليم المعتدلة هم اكمل خلق ا وأعدلهم أجساما وألوانا وأخلاقاً واديانا". ولكننا يجب ألا نبالغ في تقدير أثـر البيئة على التطور الحضاري والدليل على ذلك أن هناك مجتمعات وجدت في بيئـات جغرافية متشابهة ولكنها تفاوتت في مستواها الحضاري. فبيئات وادي النيل في أفريقيا ووادي ريودوجنيوري ووادي كلورادوا في أمريكا الجنوبية والشمالية تكاد تكون واحدة من حيث التشابه الجغرافي والمناخي كأودية نهرية. ولكن المجتمع المصري القديم قـد تفوق وبلغ مستوى عالي من الرقي الحضاري في حين أن الهنود الحمر عاشوا علـى

ضفاف الأنهار الأمريكية شمالا وجنوبا في حالة بدائية. وكذلك في البيئات الصحراوية وبيئات الغابات وغيرها وهذا يرجع إلى دور العقل ومـدى قدرتـه علـى مواجهـة الصعوبات التي تقابله والتغلب عليها.

ويعد الدين أهم العوامل التي تؤثر في توجيه مسيرة الحضارة ، فالعقيدة أياً كانـت ذات أثر فعال في حياة المجتمعات ويشترك في تلقي هذا الأثر جميع البشر مهما تتفاوت حظوظهم من الحضارة ،لكن يلاحظ أن عقائد الجماعات البدائية التي تتعبـد لظـواهر الطبيعة - وتتخذ رموزا لها من الحجر والخشب – لم تؤد بهـا إلـى الرقـي بتلـك المجتمعات على حين أن العقيدة كلما اقتربت من فكرة التوحيد والإيمان بالحياة الأخرى والثواب والعقاب أصبحت من اكثر العوامل فاعلية في الارتقاء بالحضارة والإنـسان. ذلك لأن الدين يفرض علة للكون ورسالة للإنسان على الأرض ويقدم منظومة من القيم الروحية والأخلاقية التي ينبغي الالتزام بها. وهذه الجوانب تحث الإنسان والفرد علـى أن يبذل الجهد في ظل منظومة القيم التي يؤمن بها من اجل تحسين مـستوى معيـشته على الأرض.

والحضارة ظاهرة إنسانية عامة، وقد يحدث أن تمر علـى شـعب مـن الـشعوب ظروف تدفعه إلى الانتقال من سكون البداوة إلى حركة النهضة والتحضر. كما حـدث لبدو الجزيرة العربية ، عندما جاءت الرسالة السماوية ونزل الـوحي علـى الرسـول الخاتم محمد صلى ا   عليه وسلم، فقد تحولوا من مجرد رعاة للغنم تـشغلهم نـزواتهم وتمتد صراعاتهم لأعوام لأسباب واهية إلى علماء وقادة فتحوا العالم اجمع واستطاعوا خلال سنوات قليلة أن ينشروا عقيدتهم وأن يقدموا للبشرية الاختراعـات والفتوحـات العلمية التي قامت على أساسها الحضارة الغربية الحديثة، وقـد لا تتـاح مثـل هـذه الظروف لشعوب ومناطق أخرى أو أن تكرر نفسها مرة أخرى مثلما حـدث لـشعوب المنطقة العربية بعد الغزوات التخريبية للصليبيين والتتار وذلك بسبب الفساد الـسياسي والإداري الذي كان سائدا.

أما اصل الحضارة ونشأتها فقد ناقشها الكثير من الفلاسفة الغربيين مثل أر نولـد توينبي و نيتشه وغيرهم أما ابن خلدون فقد تكلم فيها وقال:" إن ا   سبحانه وتعالى لمـا

ركّب الطباع في الحيوانات كلها وقسم القدر بينها جعل حظوظ كثير مـن الحيوانـات العجم من القدرة اكمل من حظ الإنسان وجعل للإنسان عوضاً عن ذلك كله الفكر واليد. فاليد مهيئة للصنائع بخدمة الفكر والصنائع تحصل له الآلات التـي تنـوب لـه عـن الجوارح المعدة في سائر الحيوانات للدفاع عن نفسها، ولكن الإنسان مع ذلك عاجز عن حماية نفسه لذلك فهو مضطر للاستعانة بغيره والالتئام مع أشباهه في جماعات تتوزع فيما بينهم الأعمال الضرورية والكفيلة ببقائهم، وهذا الاجتماع ضروري للنوع الإنساني وإلا لم يكمل وجودهم وما أراده ا من اعتمار العالم بهم واسـتخلافه إيـاهم" وهـذا الاجتماع الإنساني هو الخطوة الأولى على طريق الحضارة.

لقد شبه الكثير من المفكرين و المؤرخين الغربيين القدامى بين أطوار حياة الإنسان وحركة الحضارات. فقد ذهب توكيد يد المؤرخ الروماني إلى هذا المعنى عندما قال "إن الحضارات تدور في دائرة واحدة من ميلاد وشباب وقوة ثم شيخوخة وتراجع وأخيـرا وفاة واندثار". كما قال "إن كل ما يحدث اليوم حدث مرارا قبل ذلك وسيحدث مـرات أخرى في مستقبل الزمان" وقد اخذ ابن خلدون هذه النظرية واعتبرها محوراً لأفكـاره عن التاريخ والحضارة وخلاصتها أن البداوة هي أول مرحلة من مراحـل الحـضارة عندما يتجمع البشر في جماعة بدوية ثم ينتقلون إلى مرحلة أخرى وهى مرحلة الحضر والقوة والتقدم يلي ذلك مرحلة الصعود والسيطرة وأخيراً مرحلة التراجع والاندثار. هذه هي المراحل الأربعة في تطور الحضارات عند ابن خلدون وقد تطول إلى ستة مراحل وقد تقتصر على ثلاثة فقط.

وهذه الأطوار الحضارية والتدرج في مراتب الحضارة حتى اندثارها يعود –كمـا يقول أصحاب هذه النظرية- إلى أن الحضارة تضعف من يملك أسبابها ويطمئن إليهـا ويستسلم لنعيمها فتخور قوته ويقل حماسه للجهـاد ويـستولي عليـه التـرف فيفـسد ويضمحل، وهذا القول يجانبه الصواب لان الحضارة تقوي الإنسان ولا تضعفه لأنهـا معارف وعلوم وخبرة وتجارب وكل هذا يزيد ملكات الإنسان وتفجر فيه ينابيع القـوة. ولكن سوء استخدام هذه العلوم والمعارف هو ما يؤدي إلى الفساد وقد كان أهل الأمـم السابقة يسيئون استخدام ما يملكونه من أسباب التمدين والرقي فيـسرفون فـي التـنعم

ويزهدون في العمل والجهد فتضمحل قواهم وتندثر حضارتهم ويمهد الطريـق لأمـم أخرى لكي تبني حضارة جديدة. وهذه الظاهرة لخصها المؤرخين وأصحاب الفكر فيما يطلق عليه بسيطرة أدوات الحضارة على الإنسان وليس سيطرة الإنسان علـى أدوات الحضارة، وليس المقصود هنا هو عدم السيطرة على أدوات الدمار من أسلحة وبـارود وخلافه فقط ولكن هو عدم التحكم في شهوات الفرد ورغباته فالإسراف فـي أي شـئ حتى الطعام والشراب يؤدي إلى الإفساد والضرر.

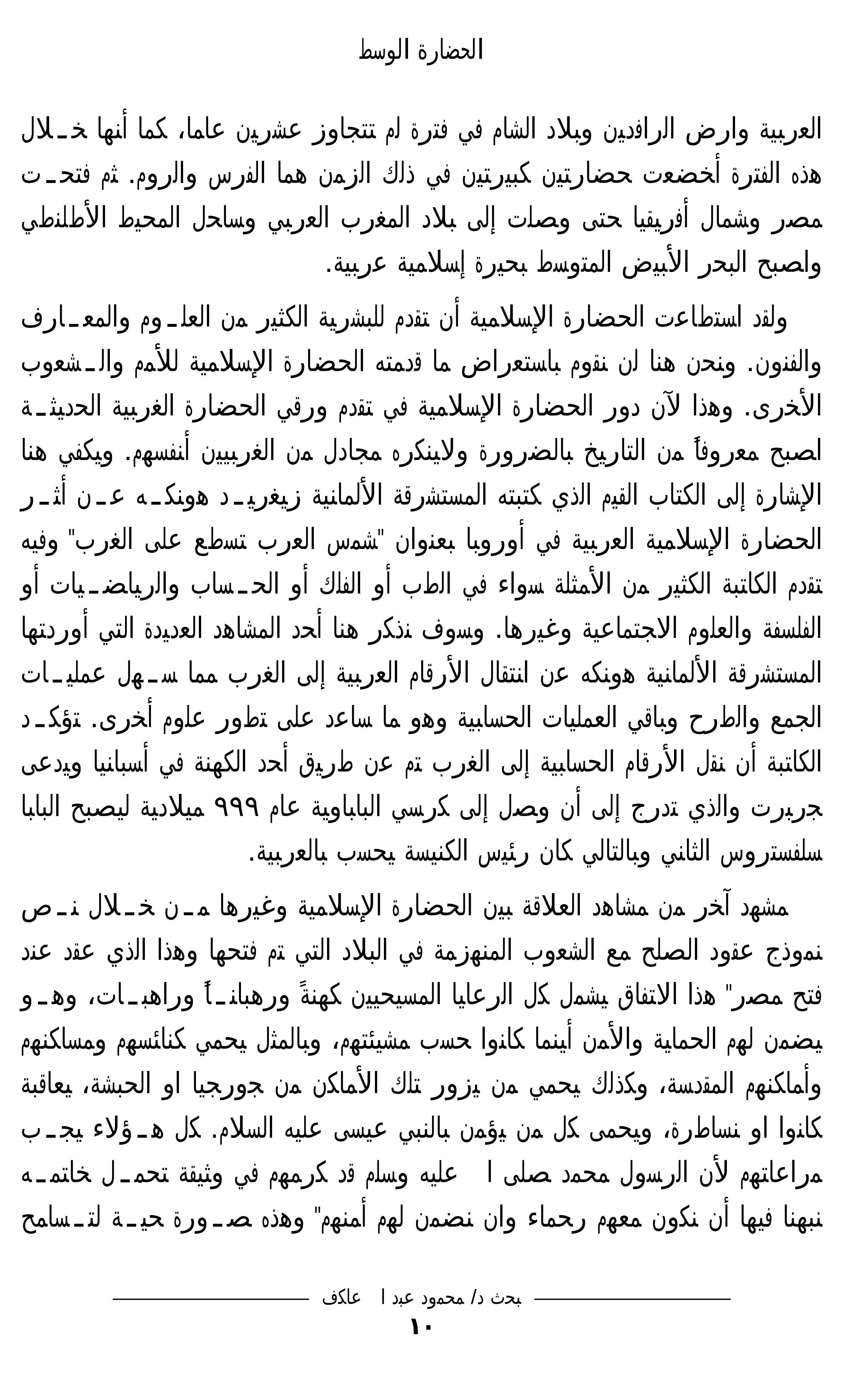
وبعد أن عرضنا لمفهوم الحضارة ونشأتها ومراحل تطورها فإننا يجب أن نتـساءل هل الحضارات تتصارع كما تتصارع الأمم والدول في ميـادين الحـرب والـسياسة والرياضة وغيرها من مجالات التنافس؟ والإجابـة المباشـرة هـي نعـم تتـصارع الحضارات وهذا أمر غير صحي لأنه يهدر موارد البشرية كما تهدرها الحروب بـين الدول. فكل أصحاب حضارة أو ثقافة يودون أن تكون لهم السيطرة والانتشار من خلال نشر ثقافتهم وفكرهم في مدى أوسع من الدول وبين عدد اكبر من البـشر. والـصراع الحضاري قد يأخذ أشكالاً مادية -الصراع على الوصول أولاً للقمر- أو أشكال فكرية مثل التي بين اللبرالية والشيوعية.

نشأة وسكون الحضارة الإسلامية:

يعتقد البعض أن الحضارة الإسلامية كان يجب أن تمر بمراحل الصعود والهبوط الحضاري كبقية الحضارات. ولكنني اعتقد أن الحضارة الإسلامية تختلف عن باقي الحضارات وتتميز عنهم بأنها حضارة نابعة من الدين الخاتم الذي ارتضاه الخالق سبحانه وتعالى للبشرية "...ورضيت لكم الإسلام دينا" . كما أن الحضارة الإسلامية لم تمر بمراحل الصعود المتدرج وانما ولدت حضارة عظيمة منذ أول يوم ذلك لان الهدف من التقدم الحضاري هو الوصول بالإنسان إلى أعلى مراتب التحضر من خلال التعامل مع مكونات الكون طبقا للناموس الإلهي وفهم الأدوار المختلفة لهذه المكونات وتوظيفها في خدمة الإنسان حتى يحقق رسالته. من هنا فإن الحضارة الإسلامية منذ نشأتها مع هجرة الرسول محمد صلى ا عليه وسلم إلى المدينة قد وصلت إلى أعلى مراتب التحضر من خلال صياغتها للإنسان المسلم الصياغة التي يستطيع أن يتعامل مع الخلائق المتعددة بالطريقة المثلى.

أما الحضارات الأخرى فقد كان للإنسان دور رئيسي في تكوينها وتطويرها وبالتالي فإنها تحمل في طياتها بذور فنائها نظرا لقصور القدرة الإنسانية مهما بلغت من عبقرية. فنجد أن معظم الحضارات السابقة مثل الحضارة المصرية القديمة أو الحضارة اليونانية أو الرومانية أو حضارات الشرق المختلفة سواء الهندية أو الصينية وغيرهم وقد أبلت بلاءً حسناً على مستوى العلوم والفنون. ولكن أغلب هذه الحضارات لم تستطيع أن ترفع من درجة تعامل الإنسان مع ما يحيط به في الكون. أو أن يفهم رسالته في الحياة فهماً صحيحاً حتى يتمكن من أن يعيش سعيداً، وأن هذه الحضارات عندما كانت تتقدم وتحقق بعض النجاح والسيطرة ويزداد نفوذها كان أبناؤها يخلدون إلى الدعة والراحة ويفقدون الرغبة في العمل وبذل الجهد ، وبالتالي تبدأ هذه الحضارات في التراجع والاضمحلال لأنه لم تكن هناك عقيدة قوية تعمل على صياغة أفراد وشعوب هذه الحضارات بالطريقة التي يفهموا بها رسالتهم الحقيقية في الحياة.

ولقد نشأت الحضارة الإسلامية - ولا نقول صعدت لأنها لم تتدرج مثل باقي الحضارات في الصعود – واستطاعت في خلال سنوات معدودة أن تسود الجزيرة



العربية وارض الرافدين وبلاد الشام في فترة لم تتجاوز عشرين عاما، كما أنها خلال هذه الفترة أخضعت حضارتين كبيرتين في ذلك الزمن هما الفرس والروم. ثم فتحت مصر وشمال أفريقيا حتى وصلت إلى بلاد المغرب العربي وساحل المحيط الأطلنطي واصبح البحر الأبيض المتوسط بحيرة إسلامية عربية.

ولقد استطاعت الحضارة الإسلامية أن تقدم للبشرية الكثير من العلوم والمعارف والفنون. ونحن هنا لن نقوم باستعراض ما قدمته الحضارة الإسلامية للأمم والشعوب الأخرى. وهذا لآن دور الحضارة الإسلامية في تقدم ورقي الحضارة الغربية الحديثة اصبح معروفاً من التاريخ بالضرورة ولاينكره مجادل من الغربيين أنفسهم. ويكفي هنا الإشارة إلى الكتاب القيم الذي كتبته المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه عن أثر الحضارة الإسلامية العربية في أوروبا بعنوان "شمس العرب تسطع على الغرب" وفيه تقدم الكاتبة الكثير من الأمثلة سواء في الطب أو الفلك أو الحساب والرياضيات أو الفلسفة والعلوم الاجتماعية وغيرها. وسوف نذكر هنا أحد المشاهد العديدة التي أوردتها المستشرقة الألمانية هونكه عن انتقال الأرقام العربية إلى الغرب مما سهل عمليات الجمع والطرح وباقي العمليات الحسابية وهو ما ساعد على تطور علوم أخرى. تؤكد الكاتبة أن نقل الأرقام الحسابية إلى الغرب تم عن طريق أحد الكهنة في أسبانيا ويدعى جربرت والذي تدرج إلى أن وصل إلى كرسي البابوية عام ٩٩٩ ميلادية ليصبح البابا سلفستروس الثاني وبالتالي كان رئيس الكنيسة يحسب بالعربية.

مشهد آخر من مشاهد العلاقة بين الحضارة الإسلامية وغيرها من خلال نص نموذج عقود الصلح مع الشعوب المنهزمة في البلاد التي تم فتحها وهذا الذي عقد عند فتح مصر" هذا الاتفاق يشمل كل الرعايا المسيحيين كهنةً ورهباناً وراهبات، وهو يضمن لهم الحماية والأمن أينما كانوا حسب مشيئتهم، وبالمثل يحمي كنائسهم ومساكنهم وأماكنهم المقدسة، وكذلك يحمي من يزور تلك الأماكن من جورجيا او الحبشة، يعاقبة كانوا او نساطرة، ويحمى كل من يؤمن بالنبي عيسى عليه السلام. كل هؤلاء يجب مراعاتهم لأن الرسول محمد صلى ا عليه وسلم قد كرمهم في وثيقة تحمل خاتمه نبهنا فيها أن نكون معهم رحماء وان نضمن لهم أمنهم" وهذه صورة حية لتسامح

المسلمين والحضارة الإسلامية ولكنه تسامح عن قوة -وليس كما يراد الآن أن نتسامح عن ضعف- وهذا الاتفاق لم يكن وعوداً جوفاء بل احترمها المسلمون نصاً وروحاً.

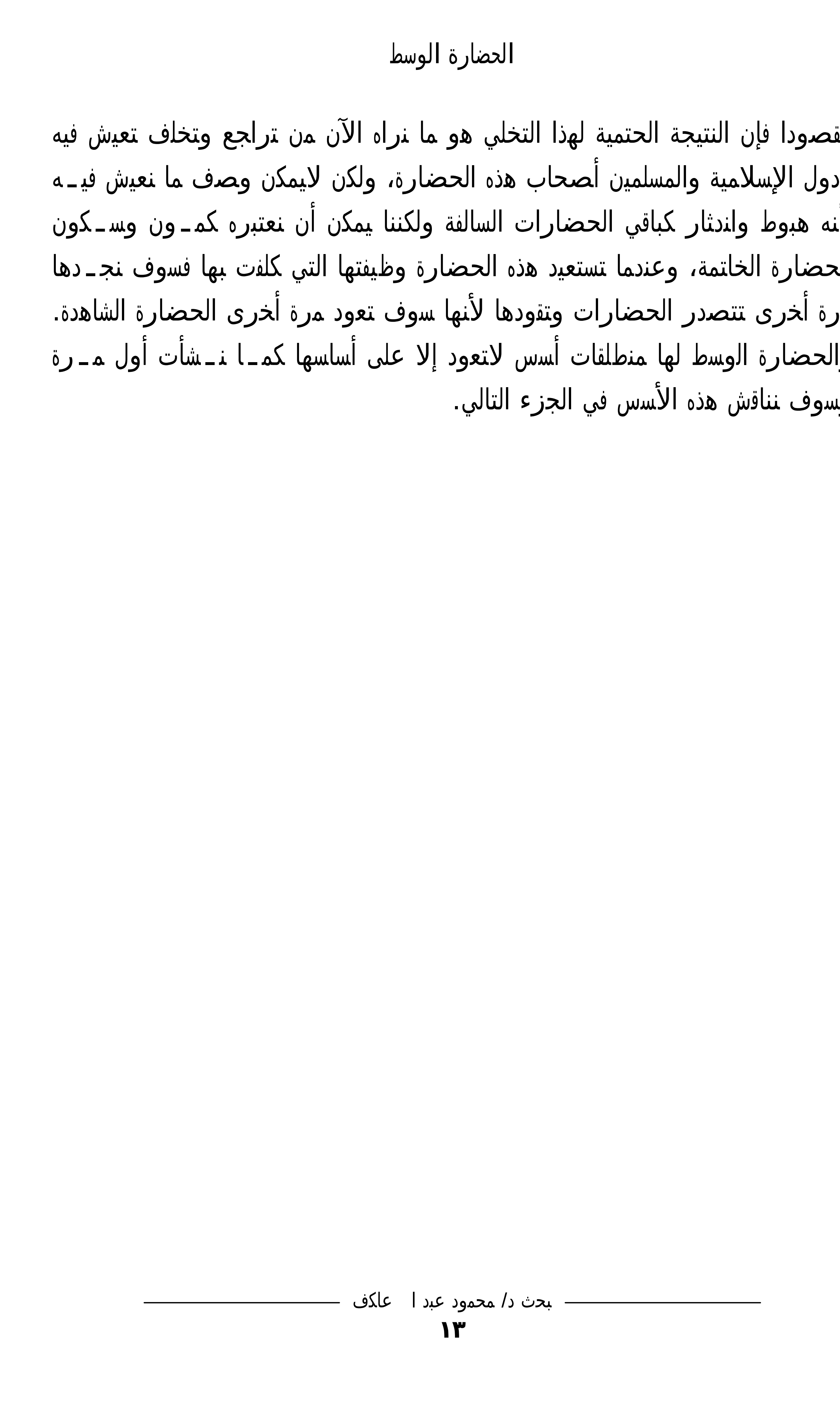
ولكن استقراء التاريخ ونظرة على الواقع يجد أن المسلمين أصحاب هذه الحـضارة العظيمة متخلفين بمقاييس عديدة منها العلم والاقتصاد والمعرفة وغيرها من المعـايير. وهذا ما يجعلنا نتساءل هل الحضارة الإسلامية مثل بقية الحضارات أخذت دورها فـي التاريخ وصعدت وهبطت وقامت بتسليم الراية الحـضارية لحـضارة أخـرى وهـي الحضارة الغربية الحديثة!! أم أن الحضارة الإسلامية نسيت وفقدت دورها ووظيفتهـا التي قامت من اجلها وبالتالي تراجعت عن مكانتها الأصلية والمؤهلة لها حتى تسترجع دورها الذي يجب أن تقوم به وهذا ما سوف نناقشه في الجزء التالي.

الحضارة الوسط ...الوظيفة والدور:

من دراسة التاريخ الإنساني نجد أن لكل حضارة من الحضارات التي مـرت فـي العصور المختلفة دوراً ،كان يجب عليها القيام به في ظل الأوضاع العالمية والإنسانية التي كانت سائدة في وقتها، ثم تقوم بتسليم الراية إلى حضارة أخرى، فنجد الحضارات التي غالت في المادية والاهتمام بالمادة وكان دورها هو تقديم النمـوذج المـادي فـي التعامل مع متغيرات الحياة وكانت تأتي هذه الحضارات في فترات تكـون الإنـسانية شديدة الانغماس في الروحانيات وترفض أي شكل مادي سواء في العلوم أو في غيرها من الأشكال ولا تتعامل معه، وعلى النقيض من هذا الوضع تكون هنـاك حـضارات تغالي في الجوانب الروحية وترفض أي اهتمام بالمادة من أجل إبراز النموذج الروحي الصرف على البشرية والإنسانية جمعاء، وقد تقاص دور ووظيفة هـذه الأنـواع مـن الحضارات على تأكيد ضرورة وأهمية الرؤية الشاملة في التعامل مع الجنس البشري. وبعد بيان النماذج المختلفة للتعامل الحضاري مع البشر كان من الضروري أن يـأتي البديل الثالث وهى الحضارة الوسط. إذن فالوسطية دور ووظيفة وليست مجرد صفة.

وإذا أردنا معرفة أسباب كون الحضارة الإسلامية هي الحضارة الوسط فإننا يجـب أن نعود إلى مصدر هذا الدين وأساس تشريعاته وعقيدته وهو القرآن الكريم فنجـد أن الآية الكريمة من سورة البقرة تقول " وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء علـى الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا" من هنا نتيقن أن الوسطية وظيفة ودورها الأساسي هو الشهادة على الأمم والحضارات الأخرى المختلفة. كما يتضح لنا لمـاذا يجـب أن تكون الحضارة الخاتمة هي الحضارة الوسط لان متطلبات الشهادة الـصادقة -وهـى الدور- أن يكون الشاهد وسطا لا يميل يمينا ولا شمالا حتى تكون شهادته صـحيحة. كما أننا نعرف من أقوال العرب المأثورة أن خير الأمور الوسط، لذلك فإن الحـضارة الإسلامية هي خير الحضارات، وقد قال أر سطو "الفضيلة وسط بين رذيلتين".

وإذا كان الدور الوسطي ضروري لتحقيق الشهادة لأنه ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فإن التخلي عن هذا الواجب ينفي عن الحضارة الإسلامية الـشهادة الـصادقة وتقل قدرتها على أداء وظيفتها المنوطة بها، وسواء كان هذا التخلي مقصودا أو غيـر



مقصودا فإن النتيجة الحتمية لهذا التخلي هو ما نراه الآن من تراجع وتخلف تعيش فيه الدول الإسلامية والمسلمين أصحاب هذه الحضارة، ولكن لايمكن وصف ما نعيش فيـه بأنه هبوط واندثار كباقي الحضارات السالفة ولكننا يمكن أن نعتبره كمـون وسـكون للحضارة الخاتمة، وعندما تستعيد هذه الحضارة وظيفتها التي كلفت بها فسوف نجـدها مرة أخرى تتصدر الحضارات وتقودها لأنها سوف تعود مرة أخرى الحضارة الشاهدة.

والحضارة الوسط لها منطلقات أسس لاتعود إلا على أساسها كمـا نـشأت أول مـرة وسوف نناقش هذه الأسس في الجزء التالي.

منطلقات وأسس... الحضارة الوسط:

هناك العديد من المنطلقات التي يجب أن تعود الحضارة الوسط على أساسها وهى شروط ضرورية وليست شروط كافيه، أولها الحرية، التي يجب أن تسود المجتمعات الإسلامية حتى تسترد حضارتها دورها ووظيفتها الوسطية، يلي ذلك العدل والعلم والشمول والتوازن والقوة والأخلاق والقيم وهناك أسس أخرى ولكننا سنكتفي بهذه المنطلقات لأنها أصلية وفيما عداها تعتبر تابعة لها.

١. الحرية:

إن أهم ما يميز الإنسان -الذي يعتبر الأداة الأساسية لتحقيق التقدم والتحضر- هو ما حباه ا به من عقل، لذلك فإن توظيف هذا العقل واستخدامه بكفاءة هو الطريق الأمثل لكي يعيش الإنسان سعيدا وناجحا في هذه الحياة، والعقل كما نعلم هو مناط الفكر والتفكير والاختيار بداية من الاختيار بين الخير والشر وحتى الاختيار بين البدائل في مجالات حياته المختلفة، وإذا لم يتح للإنسان بدائل مختلفة للاختيار فإن وظيفة العقل تتوقف وبالتالي يفقد الإنسان لأهم سمة من سمات تميزه دون باقي المخلوقات، ومن أجل قيام العقل بوظيفته الأساسية من تفكير واختيار فإنه من الضروري أن يعيش في بيئة حرة.

لذلك فإن الحرية النابعة من قيم المجتمع العليا واختياراته الأيدلوجية قيمة أساسية يجب أن تسود في أي مجتمع يريد أن يصل لمستوى حضاري متقدم، والحضارة الإسلامية لأنها نابعة من الدين الإسلامي فإنها تدعو إلى الحرية في مجالات الحياة كلها وأيضا على مستوى العقيدة فليس هناك إكراه حتى في الدين، كما أن الحياة في بيئة حرة تساعد على رفع درجات الانتماء للمجتمع وبالتالي المشاركة وبذل الجهد من أجل تحقيق أهدافه، أما اختفاء الحرية والحياة في بيئة مكبوتة يولد التطرف وينشئ أجيال تتسم بالضعف وهذا يؤدي إلى إعاقة استعادة وظيفة ودور الحضارة الإسلامية.

٢. الشمول والتوازن:

يجب أن تستعيد الحضارة الإسلامية شمولها وتوازنها حتى تستطيع أن تقوم بدورها ووظيفتها من وسطيه تمكنها من الشهادة الصحيحة الصادقة على باقي الأمم والحضارات، والشمولية المطلوبة تعني أن الحضارة الوسط تهتم بكافة الجوانب المادية والروحية ، العلمية والفنية، وكما أنه يهتم بالفرد فإنه يهتم بالجماعة، وكما يهتم بالواقعية فإنه يهتم بالمثالية. هذا هو الشمول الذي تنادي به الحضارة الإسلامية كما انه هو الشمول الذي يجب أن يتحقق لعودة الحضارة الوسط، والشمول وحده لا يكفي بل يجب أن يتحلى هذا الشمول بالتوازن، فالتوازن أيضا من شروط تحقيق الشهادة "واقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان" فيجب التوازن في التعامل بين المادية والروحية والتوازن يعنى عدم الإفراط أو التفريط والتوازن ضد التطرف بأشكاله المختلفة، والتوازن في العبادات أيضا مطلوب، لذلك فالشمول المتوازن منطلق وأساس مهم من أسس الحضارة الوسط.

٣. العلم والعمل:

لقد وصف عبد الرحمن الكواكبي العلم في كتابه الشهير طبائع الاستبداد فقال"العلم قبسة من نور ا وقد خلق ا النور كشافاً مبصراً ، ولاداً للحرارة والقوة. وجعل العلم مثل النور وضاحاً للخير فضاحاً للشر، يولد في النفوس حرارة وفي الرؤوس شهامة. العلم نور والجهل ظلام ومن طبيعة النور أنه يبدد الظلام ، والمتأمل في حالة كل رئيس ومرؤوس يرى أن سلطة الرئاسة تقوى وتضعف بنسبة نقصان علم المرؤوس وزيادته" . وهذا الوصف والتعريف للعلم يوضح لماذا تتطلب الحضارة الوسط أن يهتم أبنائها بالعلم وأن يكون منطلق أساسي من منطلقاتها.

ولكن العلم يجب أن يتبعه عمل حتى تعم فائدته وتنتشر. والعمل في الحضارة الوسط هو العمل الصالح الذي تستفيد منه الأمة والبشرية كلها. كما أن العلم النافع ليس فقط العلم الشرعي ولكن يضاف إليه علوم الحياة المختلفة التي تيسر للأفراد معيشتهم وتعينهم على القيام برسالتهم في الحياة، وبدون العلم وحب العمل وبذل الجهد لن تستطيع الحضارة الوسط أن تقوم بدورها ووظيفتها والشهادة على الحضارات الأخرى،

لان الشهادة الحقيقية الصادقة يجب أن تكون على علم ودراية حتى لا يستطع أحد أن يخدعها أو يغشها.

٤. القوة والعدل:

رابع المنطلقات الأساسية للحضارة الوسط هو أن تكون قوية قادرة على الدفاع عن نفسها ماديا وثقافيا. كما أنها مطالبة بأن تعد ما تستطيع من قوه مادية ، وليس الهدف منها شن الحروب على الأمم الأخرى ولكن الهدف هو درء الصراعات عنها، مثلا فإن الدول التي تمتلك أسلحة نووية تحمي نفسها من أي هجوم نووي، والقوة المادية لا تقف عند قوة السلاح ولكن قوة الاقتصاد أيضا، والحضارة الوسط يجب أن تكون حضارة تسامح وعفو ولكن التسامح القائم على القوة وأن الضعيف لا يعفو أو يسامح ولكنه يغلب على أمره.

كما أن الحضارة الوسط يجب أن تتسم بالعدل وأن يكون ملازم لقوتها، لان مجتمع القوة دون العدل يصبح غابه، والشاهد إذا لم يكن عدلاً ترد شهادته وترفض، وكما ورد في الأمثال العربية أن دولة الظلم ساعة ودولة العدل إلى قيام الساعة، والحضارة الوسط هي الحضارة الخاتمة ويجب أن تظل إلى قيام الساعة، ونحن على يقين بان ما نشاهده من قوة للحضارة الغربية في الزمن المعاصر هي قوة بدون عدل ، لان العدل المطلوب ليس فقط العدل الداخلي بين أفراد المجتمع -لو تحقق- بل العدل في كل التصرفات والمواقف، فما نراه الآن من استخدام للمعايير المزدوجة في التعامل للحضارة الغربية هو الظلم بعينه ويعتبر من نقاط الضعف في تلك الحضارة ، ذلك لأن الحضارة الوسط لا تريد أن تكون هي القوية وباقي العالم ضعيف أو أن تكون هي الغنية وتستغل قوتها للسيطرة على العالم ولكن الحضارة الوسط تهدف إلى تحقيق الخير للعالم اجمع.

٥. الأخلاق والقيم:

وهو أحد المنطلقات الهامة التي لا يمكن للحضارة الوسط أن تقوم بدونه لأنه هو الضمانة الأساسية لاستمراريتها، والقيم الأخلاقية المطلوبة ليست المثالية التي تعتبر الإنسان ملاكاً لا يخطئ، وهي أيضاً ليست الإفراط في الواقعية والتي تعتبر الإنسان

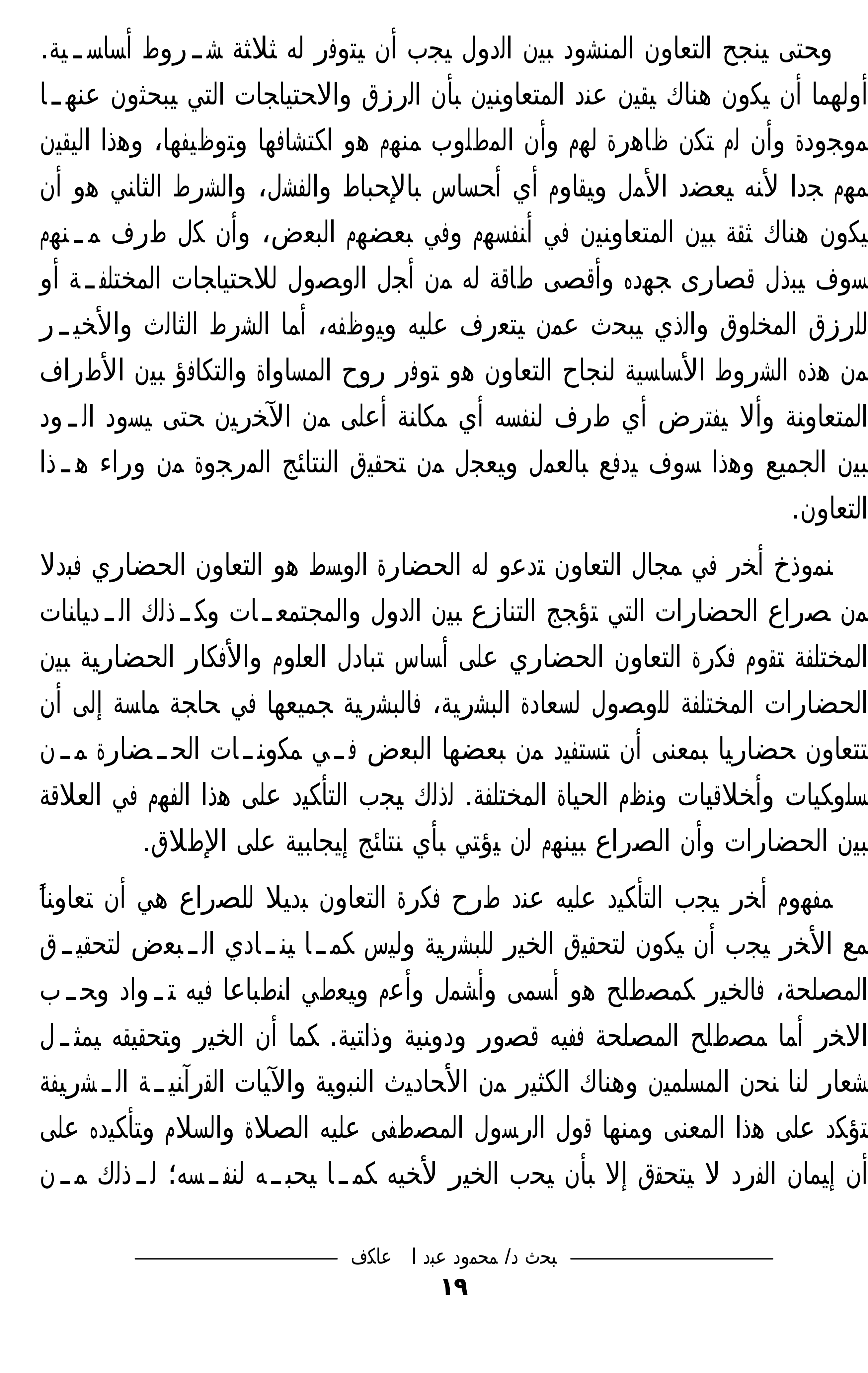
كالحيوان وتبرر له من السلوك ما لا يليق به، ولكن الحضارة الوسط تتعامل مع الإنسان بجوانبه المختلفة من عقل وروح وجسد وتنمي فيه حب أمهات الفضائل وتحث عليها، فمن ينكر أهمية الصدق والأمانة والوفاء والصبر والعفاف والحياء والشجاعة وغيرها من القيم الضرورية والمهمة في حياة الإنسان التي تتحقق له السعادة في الدنيا؟ كما أن الفطرة السليمة ترفض وتنكر الكذب والنفاق والفحشاء والفساد والخيانة وغيرها من الرذائل الغير محمودة. ويجب ألا ننسى كيف أن الرسول الخاتم صلى ا عليه وسلم -تعظيما لدور الأخلاق والقيم- قد جمع هدف رسالته في كلمات محددة هي"إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق".

هذه هي المنطلقات الأساسية للحضارة الوسط ومن الضروري على أصحاب هذه الحضارة وأبنائها أن يستعيدوا تلك المنطلقات حتى يتمكنوا من أن تعتلي الحضارة الوسط المكانة التي تستحقها، ولقد ذكرنا أن الحضارات تتصارع مادياً وفكرياً وثقافيا ولكن هل الحضارة الوسط تتصارع أيضا من أجل السيطرة على مساحات اكبر من العالم وإذا كانت تريد الخير ليس لمجتمعها فقط ولكن للبشرية جمعاء، فلماذا تتصارع إذن؟ هذا ما سوف نناقشه في الجزء التالي عن شكل العلاقة بين الحضارة الوسط والحضارات الأخرى وهل هي علاقة صراع أم علاقة تعاون؟

التعاون بديلا عن الصراع:

إن الصراع الذي نراه الآن ويروج له عدد من المفكرين الغربيين ينطلق أساسا من المشكلة الاقتصادية والتنافس على الرزق والموارد المختلفة، والحضارة الوسط تؤكـد علينا بأن دورنا للحصول على احتياجاتنا وأرزاقنا هو البحث عن هذا الرزق والـسعي حثيثا لاستنباطه واستخراجه والتعرف عليه. من الخطأ أن نتصارع فيما بيننـا علـى المتاح والظاهر أمامنا نتيجة اعتقادنا -الغير صحيح- أن هذا الظاهر هو فقط الـرزق المخلوق لإشباع احتياجاتنا. لكن الحقيقة أن ا سبحانه وتعالى قد خلـق الاحتياجـات الكافية للبشر جميعا من خلال أرزاقهم التي خلقها مع خلقهم ذاتهم وما عليهم إلا السعي للتعرف على هذا الرزق والبحث عنه، والسعي المطلوب لا يتطلب صـراعا حتـى لا تتفتت الجهود بل أن البحث يدعونا إلى عكس الصراع وهو التعاون فيما بيننا.

كما أنه يجب التفكير في كيفية التعامل مع هذا الرزق أو هـذه الاحتياجـات عنـد اكتشافها والحصول عليها ويجب العلم بأن ما نطلبه من احتياجات هل هو لسد حاجـة حقيقية لحياتنا أم أنه للاستهلاك الترفي وللشراهة في الاستحواذ. فغالبـاً مـا نجـد أن الصراع على الموارد الطبيعية بين الدول والمجتمعات ليس لسد حاجة حقيقية ونقـص في الاحتياجات الأساسية لأفراد وشعوب تلك الدول أنما ناتج عـن الطمـع والرغبـة الشديدة في الاستحواذ على ما يزيد عن الحاجة خوفاً من نضوب هـذه المـوارد فـي المستقبل والذي سوف يؤثر بدوره كما ذكرنا على رفاهية هذا الشعب أو ذاك، وهنـاك أمثلة كثيرة وعديدة في العالم تؤكد هذا المفهوم الشره لطبيعـة الاسـتهلاك ويتناسـى الجميع أن البشر أفراداً أو مجتمعات لن يستطيع أن يـستهلك أكثـر مـن احتياجاتـه الحقيقية؛ لذلك من الضروري التأكيد على الفهم الذي يدعو بأن التعاون بين الدول فـي البحث عن مصادر الاحتياجات والأرزاق يؤدي إلى الوصول إلى نتائج إيجابية وفاعلة وبالتالي يحصل كل فرد ومجتمع على احتياجاته من دون صراع أو نـزاع وبالتـالي سوف يعمل على تحقيق الرفاهية ليصل بالبشرية إلى مستوى معيشة أفضل، وهذا مـن الأدوار المهمة التي تقوم بها الحضارة الوسط بان تنـشر هـذا الفهـم بـين شـعوب ومجتمعات العالم والحضارات الأخرى.



وحتى ينجح التعاون المنشود بين الدول يجب أن يتوفر له ثلاثة شـروط أساسـية. أولهما أن يكون هناك يقين عند المتعاونين بأن الرزق والاحتياجات التي يبحثون عنهـا موجودة وأن لم تكن ظاهرة لهم وأن المطلوب منهم هو اكتشافها وتوظيفها، وهذا اليقين مهم جدا لأنه يعضد الأمل ويقاوم أي أحساس بالإحباط والفشل، والشرط الثاني هو أن يكون هناك ثقة بين المتعاونين في أنفسهم وفي بعضهم البعض، وأن كل طرف مـنهم سوف يبذل قصارى جهده وأقصى طاقة له من أجل الوصول للاحتياجات المختلفـة أو للرزق المخلوق والذي يبحث عمن يتعرف عليه ويوظفه، أما الشرط الثالث والأخيـر من هذه الشروط الأساسية لنجاح التعاون هو توفر روح المساواة والتكافؤ بين الأطراف المتعاونة وألا يفترض أي طرف لنفسه أي مكانة أعلى من الآخرين حتى يسود الـود بين الجميع وهذا سوف يدفع بالعمل ويعجل من تحقيق النتائج المرجوة من وراء هـذا التعاون.

نموذج أخر في مجال التعاون تدعو له الحضارة الوسط هو التعاون الحضاري فبدلا من صراع الحضارات التي تؤجج التنازع بين الدول والمجتمعـات وكـذلك الـديانات المختلفة تقوم فكرة التعاون الحضاري على أساس تبادل العلوم والأفكار الحضارية بين الحضارات المختلفة للوصول لسعادة البشرية، فالبشرية جميعها في حاجة ماسة إلى أن تتعاون حضاريا بمعنى أن تستفيد من بعضها البعض فـي مكونـات الحـضارة مـن سلوكيات وأخلاقيات ونظم الحياة المختلفة. لذلك يجب التأكيد على هذا الفهم في العلاقة بين الحضارات وأن الصراع بينهم لن يؤتي بأي نتائج إيجابية على الإطلاق.

مفهوم أخر يجب التأكيد عليه عند طرح فكرة التعاون بديلا للصراع هي أن تعاوناً مع الأخر يجب أن يكون لتحقيق الخير للبشرية وليس كمـا ينـادي الـبعض لتحقيـق المصلحة، فالخير كمصطلح هو أسمى وأشمل وأعم ويعطي انطباعا فيه تـواد وحـب الاخر أما مصطلح المصلحة ففيه قصور ودونية وذاتية. كما أن الخير وتحقيقه يمثـل شعار لنا نحن المسلمين وهناك الكثير من الأحاديث النبوية والآيات القرآنيـة الـشريفة تؤكد على هذا المعنى ومنها قول الرسول المصطفى عليه الصلاة والسلام وتأكيده على أن إيمان الفرد لا يتحقق إلا بأن يحب الخير لأخيه كمـا يحبـه لنفـسه؛ لـذلك مـن

الضروري أن تشمل مفردات لغة الحوار مع الأخر المصطلحات النابعـة مـن فهمنـا للحياة والكون والبشر ودور كل منها في ناموس الخلق. كما يجب ألا نردد ما يعتمـده الأخر من مصطلحات استقاها من فلسفته وأيدلوجيته وعقيدته.

الخاتمة:

إن ما نعيشه في عصرنا الحالي من صراعات وحروب ودمار يعود على البشرية بالويل يؤكد الحاجة الضرورية لأن تفيق الحضارة الوسط من سباتها وأن تنشط من كمونها، وذلك لكي تقدم للعالم النموذج الذي يجب آن يعيش على نهجه. ولكي تنشيط الحضارة الوسط تحتاج إلى أن تتوفر منطلقاتها الأساسية من حرية وعدل وأخلاق وغيرها، وهذه المنطلقات والأسس ضرورية لكي تقوم بدورها ووظيفتها على خير وجه، وعدم توفر المنطلقات الأساسية يؤخر ويعيق عودة الحضارة الوسط لتحتل مكانتها بين الأمم والحضارات الأخرى. كما أن وظيفتها التي جاءت من أجلها وهى الشهادة على الشعوب والناس في العالم أجمع ستظل معلقة حتى تسترجع وسطتيها الأولى.

لذاك يجب على أبناء الحضارة الوسط وكل من يريد ويصبوا إلى أن تسترد وعيها، عليهم جميعاً أن يعملوا جاهدين من أجل ترسيخ المنطلقات الأساسية لصحوة الحضارة الإسلامية في واقع حياتنا المعاصرة، وهذا يتطلب أولا نشر ثقافة الحرية لتسود وتعم بين أبناء هذه الحضارة الخالدة، فكما ذكرنا هي الشرط الضروري لباقي المنطلقات، وهى المنطلق الأساسي الذي يمكّن الإنسان من توظيف العقل الذي يميزه عن باقي المخلوقات، وبالتالي يستطيع من خلال ذلك أن يعمر الأرض ويؤسس للحضارة والتقدم. يلي ذلك عليهم الاهتمام بالعلم والحث عليه ولكنه العلم الذي ينبني عليه عمل وبذل الجهد وتشجيع أصحاب الهمم العالية والعلماء في مختاف المجالات.

كما أن الشمول المتوازن ضروري في رؤية هذه الحضارة وتعاملها مع المتغيرات والأحداث المختلفة. والحضارة الخاتمة تحتاج إلى القوة لتحميها ولكنها قوة عادلة تقيم العدل وتدعو إليه، لأنها بدون العدل في مجتمعها وخارجه تصبح قوة غاشمة لا تنصر ضعيفا بل تكرس الظلم والقيم الأخلاقية هي التي تساعد على بقاء الأمم وبدونها تفنى الحضارات مهما بلغت من تقدم. والحضارة الوسط هي حضارة الخير ليس فقط لأبنائها

ولكن للبشرية جمعاء، ذلك لأنها الحضارة الوحيدة التي نشأت بناءً على تـشريعات الدين الخاتم ووضع أسس نجاحها الرسول المصطفى صلى ا عليه وسلم.

وا ولي التوفيق

والسلام عليكم ورحمة ا وبركاته ،،،